الحياة

عناصر الموضوع

مفهوم الحياة	١٧٦
الحياة في الاستعمال القرآني	١٧٨
الألفاظ ذات الصلة	١٧٩
حقيقة الحياة وأهميتها	١٨١
نظرة الناس للحياة	١٨٥
الحياة الدنيا في القرآن	١٨٨
الحياة البرزخية	١٩٧
الحياة الآخرة في القرآن	٢٠٢
المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة	٢١٤

مفهوم الحياة

أولًا: المعنى اللغوي:

الناظر في معاجم العربية يجد أن مادة (حيّ) تدور حول أصلين، كما أشار ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتلّ أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الّذي (هو) ضدّ الوقاحة. فأمّا الأوّل فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان. ويسمّى المطر حيًّا لأنّ به حياة الأرض. والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً»(١).

والحياء: «تغيير وانكسار يعتري الإنسان من خوف وما يعاب به»(٢).

«وأما الاستحياء بمعنى الاستبقاء: فحقيقته طلب الحياة وإرادة أن يكون فرد آخر حيًّا في مقابل من يريد الموت والهلاك، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩].

وقد ذكر في مقابل الذبح والقتل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:١٢٧]، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩]»(٣).

وبين الأصلين علاقة؛ «فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة»(٤).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الحياة: في الأصل: الروح وهي الموجبة لتحرك من قامت به، ذكره العكبري.

وقال الحرالي: الحياة تكامل في ذات ما أدناه حياة النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه. وقال في موضع آخر: الحياة كل خروج عن الجمادية من حيث إن معنى الحياة بالحقيقة تكامل الناقص»(٥).

وقال الشريف الجرجاني: «الحياة هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر»(٦).

وقال الراغب: «الحياة تستعمل على أوجه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حيٌّ، قال عزّ وجلّ:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٢.
(٢) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص١٠٩.
(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي ٢/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٤٩.
(٦) التعريفات، ص ٨٣.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ [ق:١١]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

الثاني: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانًا، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت:٣٩].

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله: ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ إشارة إلى القوّة الحسّاسة.

الثالث: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقول الشاعر:

وقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

والرابع: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، يعني بها: الحياة الأخرويّة الدّائمة.

والخامس: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله عزّ وجلّ»[1].

فالمعنى الاصطلاحي متوافق مع المعنى اللغوي على الأصل الأول الذي يدل على خلاف الموت.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٨-١٣٩.

الحياة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حيي) الدالة على الحياة في القرآن الكريم (١٧٥) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]
الفعل المضارع	٤٦	﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]
فعل الأمر	١	﴿قَالُوٓا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥]
المصدر	٧٩	﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٠]
الاسم	٣٠	﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وجاءت (الحياة) في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الخلق الأول ونفخ الروح، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، يعني: كنتم نطفًا فخلقكم وجعل فيكم الأرواح.

الثاني: الإيمان والهدى، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، يعني: فهديناه للإيمان.

الثالث: الإبقاء على قيد الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، يعني: ومن أبقاها فكأنما أبقى الناس جميعًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٢٣- ٢٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص٢٢٠- ٢٢٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص١٨٦- ١٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٥٣، ٢٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النماء:

النماء لغة:

يقول ابن فارس: «(نمى) النّون والميم والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ يدلّ على ارتفاعٍ وزيادةٍ[١].

النماء اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو الزيادة سواء أكانت حقيقية أم تقديرية.

الصلة بين الحياة والنماء:

«أن الحياة هي ما تصير به الجملة كالشيء الواحد في جواز تعلق الصّفات بها، فأما قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩] فمعناه: أنا جعلنا حالها كحال الحيّ في الانتفاع بها، والصّفة لله بأنّه حيّ مأخوذه من الحياة على التّقدير، والنماء يزيد الشّيء حالًا بعد حال من نفسه، لا بإضافة إليه فالنبات ينمي ويزيد وليس بحي، والله تعالى حيّ ولا ينام ولا يقال لمن أصاب ميراثا أو أعطي عطيّة: إنه قد نمى ماله، وإنّما يقال: نمى ماله إذا زاد في نفسه، والنماء في الماشية حقيقة؛ لأنّها تزيد بتوالدها قليلًا قليلًا، وفي الورق[٢] والذّهب مجاز، ويقال للأشجار والنبات: نوام؛ لأنّها تزيد في كل يوم إلى أن تنتهي إلى حد التّمام»[٣].

٢ العيش:

العيش لغة:

يقول ابن فارس: «(عيش) العين والياء والشّين أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حياةٍ وبقاءٍ، قال الخليل: العيش لغة: الحياة. والمعيشة: الّذي يعيش بها الإنسان: من مطعمٍ ومشربٍ وما تكون به الحياة.

العيش اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

---

(١) مقاييس اللغة ابن فارس٥/ ٤٧٩.

(٢) الوَرِق -بكسر الراء-: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٠٢٦.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٢.

الصلة بين الحياة والعيش:

قال الراغب: «العيش: أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي الملك، ويشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش منه»[١].

والحياة صفة ذاتية بها يستمر الوجود، وأما العيش فهو كيفية حادثة عارضة بعد الحياة[٢].

وقيل: بينهما عموم وخصوص، فالعيش هو الحياة المختصة بالأجسام، ويشتق منه المعيشة، وهو كل ما يتعيش منه ويقيم الأود، ويلبي رغبات الجسم، من مأكل ومشرب ومسكن ومنكح وغير ذلك[٣].

٣ الروح:

الروح لغة:

أصل مادة (روح) تدلّ على سعةٍ وفسحةٍ واطّرادٍ، وأصل ذلك كلّه الرّيح. والرّوح: روح الإنسان، وهي مشتقّةٌ من الرّيح[٤].

الروح اصطلاحًا:

قال القرطبي: «والروح: جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم»[٥].

وقال عنها المراغي: «إنها جسم نوراني، علويّ، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم»[٦].

وقال البغوي في تفسيره: «والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان»[٧].

الصلة بين الحياة والروح:

أن لكل كائن حي حياة تناسبه، ولا يلزم من ذلك أن يكون فيه الروح الخاصة بالحيوان الحي المتحرك بالإرادة، فالشجر والنباتات عامة ليس فيها روح، مع أن فيها حياة، وهذا أمر معلوم بالاضطرار.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٣.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي ٨/ ٣٣٨.
(٣) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ١٠٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٤٥٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٤.
(٦) تفسير المراغي ٤/ ١٧٦.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٨٠.

حقيقة الحياة وأهميتها

«إن الحياة في مفهومها الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد وعمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في مفهومها الإسلامي تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة-فترة الحياة الدنيا- وفترة الحياة الآخرة، وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، دارًا أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ونارًا تسع الكفرة من جميع القرون.

وتمتد الحياة في حقيقتها، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الآخرة... في الجنة والنار سواء، وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليس من مذاقاته هذه الحياة الدنيا»[1].

أولًا: حقيقة الحياة الدنيا:

١. دار استخلاف.

تكمن قيمة وأهمية الحياة الدنيا في ميزان القرآن أنها الدار التي استخلف الله عز وجل فيها عباده من أجل حمل أمانة الاستخلاف والقيام بمقتضيات العبودية وحق الربوبية.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

«وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية»[2].

هذه المهمة جعلت الإنسان موضع التكليف والمسئولية، والمكلف مأمور، تجب عليه الطاعة وهو مسئول عن عمله، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢].

(١) الحياة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ١/ ٢٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٥٦.

ويرتبط الاستخلاف في الحياة الدنيا بعمارة الأرض وفق المنهج الرباني من أجل إقامة العدل وتحقيق الإصلاح، والبعد عن الظلم والطغيان، وكل ما من شأنه أن يكون وسيلة للإفساد والتخريب في هذه الأرض.

وهذا الإصلاح يرتبط بالإيمان الصادق والطاعة الدائمة والعبادة الخاشعة، والعلم النافع المثمر.

ولقد امتن الله تعالى على بني آدم بهذه النعمة الكبرى والتي تظهر تكريمه سبحانه لهم، وإحسانه إليهم فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

«أي: إن ربكم الذي هو رب كل شيء هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم قد سبقت، وفي سيرها عبر وعظات لمن ادكر وتدبر، وكذلك هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل، ليختبركم فيما أعطاكم، أي: ليعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك، ويبني الجزاء على العمل، إذ قد جرت سنته في أن سعادة الناس أفرادًا وجماعات في الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم»[١].

وعلى هذا فإن الإنسان خليفة في الأرض«أيًّا كان مكانه في المجتمع، غنيًّا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلًا، قويًّا أو ضعيفًا، ومن واجبه أن يعمل بمقتضى هذه الخلافة، ويجمع إلى يديه أسبابها ومقوّماتها، وإنه لمن ظلم الإنسان لنفسه، ومن استصغاره لوجوده، أن يسفّ وينحدر عن هذا المستوي الكريم الذي رفعه الله إليه، فيتحول إلى كائن حيوانيّ ذليل، يقاد فينقاد، ويستذل فيذلّ، حتى لينعزل عن العالم الإنساني، ويصبح على غير الخلق السويّ الذي خلقه الله عليه»[٢].

٢. دار ابتلاء.

اقتضت سنة الله في الحياة الدنيا أن تكون دار ابتلاء واختبار، يتقلب فيه العباد بين السراء والضراء، والشدة والرخاء، واليسر والعسر، «ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل. أو يموت له حبيب أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو.. أو.. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة...»[٣].

قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

(١) تفسير المراغي، ٣ / ٢٥٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

(٣) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٧٨.

[الملك:٢].

وهكذا «ليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافًا بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل»[١].

أما مادة الابتلاء فهي زينة هذه الأرض كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٧-٨].

إن «جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا»[٢].

وقد عرضت آيات القرآن الكريم أهم شهوات الدنيا المادية وهي في ذاتها تمثل صورة من صور الزينة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

«هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعها، وهي مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هي التي تجعلها في أحد الطريقين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقًا إلى الجنة، وإن تحكّم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الديني، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقًا إلى النار؛ فهي طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئ وما تهوى نفسه»[٣].

والابتلاء في هذه الزينة والشهوات تارة يكون بالسراء وتارة بالضراء، بالمنع والعطاء، كما قال الله عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وفي هذه الآية: إشارة إلى أن الابتلاء بما يمثله من امتحان لتقلب البشر بين السراء والضراء، والخير والشر ضروري لإظهار قوة الإيمان في النفس أو ضعفه فيها، حيث تقاوم النفس -في لحظات الضراء- مشاعر الجزع والهلع لتتذوق حلاوة الصبر والرضا والتسليم، كما تتمرس على الحمد والشكر في لحظات السراء بما يعصمها من البطر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٧.
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١١٣١.

والعجب والغرور.

ثانيًا: أهمية الحياة الدنيا:

إن الحياة الدنيا حينما تقاس بمقاييسها الدنيوية، وتوزن بموازينها تبدو في العين والحس أمرًا عظيمًا هائلًا، وشيئًا جميلًا رائعًا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة، تبدو شيئًا زهيدًا تافهًا؛ فهي لعب وضياع ولهو وتفاخر، وغرور خادع، وأمل كاذب، وظل زائل.

فما هذه الحياة إلا مرور عابر واستراحة مسافر، ولكنها مع كل ذلك يمكن أن يجعل منها الإنسان مجالًا لسروره، وميدانًا لحبوره، وفرصة لخلوده، ومقرًّا لرفعته، ومحطة لغناه، وسوقًا لمناه، وفوزًا بمبتغاه.

يقول الإمام ابن القيم: «فالدنيا فى الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات، والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الاطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الايمان، ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلًا لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده»[1].

مما سبق يتضح أنه لا انفصال في التصور القرآني للحياة بين الدنيا والآخرة، فالطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا عبر بوابة الإيمان ومدارج التقوى.

فهما طريقان يكمل بعضهما البعض، طريق يجتمع فيه العمل مع العبادة في اتحادٍ وتعاضد، فكلاهما يحقق غاية وجود الإنسان على هذه الأرض وهو تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل. فكل أعمال المؤمن في هذه الحياة تتحول -إن صحت النية- إلى عبادة يجني ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، حيث يتنعم في ظلالها بالحياة الطيبة التي وعده ربه عز وجل بها في كتابه مع ما ينتظره في الآخرة من النعيم والتكريم الذي لا يخطر على البال.

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص٣٣١-٣٣٢.

نظرة الناس للحياة

تختلف نظرة الناس للحياة وفقًا لاختلاف عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم التي تنبع من المنهج الذي يستقون منه معرفتهم، فالمؤمنون الذين يجعلون القرآن الكريم منهج حياتهم يعلمون أنها دار زائلة فانية يتزودون فيها بما ينفعهم للفوز والنجاة في الآخرة؛ لذا يترفعون عن الشهوات والملذات إلا بالقدر الذي يحقق لهم الحياة ويعينهم على أداء وظيفة العبودية.

أما غير المؤمنين وقد اتبعوا مناهج أرضية مختلفة وأعرضوا عن منهج القرآن فقد أضحت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم، فكل سعيهم وجهدهم وتحركاتهم وعلاقاتهم من أجل نيل متاعها الزائل والافتخار بزخارفها الخادعة.

أولًا: نظرة المؤمنين:

ينظر المؤمنون إلى الحياة الدنيا فيرونها على حقيقتها كما وصفها كتاب ربهم: دار ابتلاء ومحن، دائمة التقلب وسريعة الزوال ولا تدوم على حال، مزينة بالشهوات، تغر الناظرين بزخارفها ومفاتنها، فيتخذونها وسيلة لا غاية، لا يتركونها بالكلية كما يفعل الرهبان أو يهجرون طيباتها أو يفرون من فتنتها بالعزلة والصمت، ولا يتكالبون على شهواتها وملذاتها بدون ضابط أو رادع. فهم يمارسون فيها وظيفة العبودية ويتقربون إلى ربهم بالأعمال الصالحات على أساس من الإيمان والتقوى، واضعين نصب أعينهم أن هذه الحياة مزرعة الآخرة، فما زرعه الإنسان في هذه الحياة سيحصد ثماره في الحياة الآخرة، تلك الحياة الحقيقية التي تهفو لها القلوب وتتطلع لها الأبصار حيث النعيم المقيم والسعادة الدائمة.

وهذه النظرة المتوازنة للحياة الدنيا يستقيها المؤمن من قول ربه عز وجل: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]

«لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.. وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة

الفطرية البسيطة»[1].

كما يدرك المؤمنون قيمة هذه الحياة الدنيا من التشبيه النبوي الرائع لها (عن جابر بن عبد اللّه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مرّ بالسّوق، داخلًا من بعض العالية، والنّاس كنفته[2]، فمرّ بجدي أسكّ[3] ميّتٍ. فتناوله فأخذ بأذنه. ثمّ قال: (أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم)، قالوا: ما نحبّ أنّه لنا بشيءٍ. وما نصنع به؟ قال: (أتحبّون أنّه لكم)، قالوا: واللّه! لو كان حيًّا، كان عيبًا فيه، لأنّه أسكّ، فكيف وهو ميّتٌ؟ فقال: (فواللّه! للدّنيا أهون على اللّه، من هذا عليكم)[4].

وهكذا.. عندما تكون الحياة الدنيا في حس المؤمن دار ممر إلى الحياة الحقيقية في الآخرة، عندها لاينخدع بزينتها وزخارفها، بل يجعلها وسيلة لعمارة هذه الأرض وفق المنهج الرباني، ويصبح شاغله الشاغل فيها هو استعمال ما وهبه الله فيها من نعم وقدرات فيما يقربه من مولاه، وفيما ينفعه في الآخرة، فكل ما يغرسه من أعمال صالحة في الدنيا يجد ثمراته في الآخرة، الحياة الحقيقية اللائقة بهذا المخلوق المكرم.

ثانيًا: نظرة الكافرين:

أما نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا فهي نظرة المخدوع بزينتها، العاشق لشهواتها، الغارق في أهوائها، فهم لا يمدون أبصارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم، يرونها الفرصة الوحيدة لإشباع ملذاتهم وشهواتهم.. أما الآخرة فلا تخطر على بالهم ولا تشغل همهم، فعشق الدنيا أعمى أبصارهم وطبع على قلوبهم، تمامًا كما وصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

«أي: مبلغ علمهم لا يتعدى مابه معاشهم في الحياة الدنيا، بصيرين بسبل رخائهم المادي في الدنيا، عمين عن طريق سعادتهم في الدنيا والآخرة، فهي حياة الحواس واللذة. والحضارة المتنكرة للدين وخالق الكون، الفاقدة لكل إشارة إلى معنى وجود الإنسان ووظيفته وغايته ومصيره بعد الموت، فلا تجد في سلم قيمها إلا مصطلحات من قبيل: اختراع، واقتصاد، وتنمية، وتمويل، ومواد أولية، وسوق، واستهلاك، ودخل فردي، ومستوى معيشة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧١١.
(٢) وفي بعض النسخ: كنفتيه، معنى الأول جانبه، والثاني جانبيه.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٣) أي: صغير الأذنين.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، أول كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢، رقم ٢٩٥٧.

إلى آخر القاموس»[1].

وهذه النظرة المنحرفة للحياة الدنيا -والتي تصدر عن عقيدة فاسدة- تدفعهم لاتباع الباطل والدفاع عنه، وسلوك سبيل الضلال، وإيثار الفساد على الإصلاح، والطغيان على العدل والإنصاف..

فعندما يتصور الإنسان أن هذه الحياة الدنيا هي نهاية المطاف وأنه لا حياة خالدة بعدها، عندها يندفع كالوحش المفترس نحو شهوات الدنيا وزينتها يغترف منها بلا ضابط أو رادع، ويتقاتل من أجل متاعها ويتصارع في سبيل الاستئثار بملذاتها، حتى أنه يرتكب في سبيل تحصيل لذاتها ومشتهياتها أبشع الجرائم وأخس الأفعال، ولم لا يفعل ذلك، وهي في حسه الفرصة الوحيدة المتاحة لإرواء شهواته وإشباع نهمه، وعندها تختفي كل معاني الإنسانية وتغيب القيم العليا والعواطف النبيلة لتتحول الأرض إلى غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ويبغى الغني على الفقير، وهذا الأمر ظاهر للعيان -خاصة- في العالم الغربي الذي لا يؤمن إلا بهذه الحياة الدنيوية.

لذا توعد الله عزوجل أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس:٧-٨].

مما سبق يتضح لنا الفرق بين نظرة المؤمنين ونظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا، فشتان شتان بين نظرة تقود صاحبها إلى الحياة الطيبة والسكينة النفسية في الحياة الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وبين نظرة تلقي صاحبها في أتون الهم والشقاء، والقلق والحيرة والاضطراب في الحياة الدنيا، والعذاب والخسران والهوان في الآخرة..

شتان شتان بين مصير المؤمنين ومصير غير المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى واصفًا أحوال المؤمنين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل:٩٧].

وقال سبحانه واصفًا أحوال غير المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه:١٢٤].

فما أبعد الشقة بين الفريقين!

(١) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ٢٥٧.

الحياة الدنيا في القرآن

أولًا: وصف الحياة الدنيا:

عرضت الآيات القرآنية صفات الحياة الدنيا بما يجلي حقيقتها، ويكشف عن قيمتها في ميزان الله عز وجل حتى لا ينخدع الناس بها أو يغفلون بسببها عن الحياة الحقيقية في الآخرة.

وفيما يلي نعرض بعض أوصاف الحياة الدنيا كما جاءت في القرآن:

١. متاع.

وردت لفظة متاع مضافة إلى (الحياة) في كتاب الله (٧) مرات: آل عمران ١٤، التوبة ٣٨، يونس ٢٣، القصص ٦٠، ٦١، الشورى ٣٦، الزخرف ٣٥.

ووردت مرة مضافة إلى (الدنيا) في النساء ٧٧.

ووردت مضافة إلى (الغرور) في موضعين: آل عمران ١٨٥، الحديد ٢٠.

ونستنتج من ذلك أن لفظ (المتاع) لم يضف إلا للدنيا وغرورها، ولم يوصف نعيم الآخرة بأنه متاع؛ لأنه نعيم كامل باق لا يفنى ولا يزول.

قال ابن منظور في اللسان: «قال الأزهري: فأما المتاع في الأصل فكل شيء ينتفع به ويتبلّغ به ويتزود، والفناء يأتي عليه في الدنيا»[1].

وفي الاصطلاح العام هو كل ما أوتي الإنسان في الحياة الدنيا من نساء وبنين ومساكن وأموال، كما قال الله عز وجل ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤]

وقد جعل هذا المتاع فتنة وإمتحانًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

ونقطة الابتلاء في حياة الإنسان هي هذا المتاع الذي وهبه ربه، هل يتناول منه القدر الذي أباحه الله وأحله، أم ينتهب ما حرم الله ولا يلتزم بطاعته؟

كما بينت الآيات أن هذا المتاع قليل وزائل لزوال الحياة الدنيا نفسها وانقضائها، قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص:٦٠].

كما أنه متاع يخدع الغافلين ويغر المغرورين، قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤١٢٧.

﴿ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]

«وما الحياة الدنيا التي نعيشها ونستمتع بها باللذات الجسدية من طعام وشراب والمعنوية من جاه ومنصب وسمو إلا كالمتاع المشترى بخداع وتغرير، ثم يتبين فساده ورداءته؛ لأن صاحبها دائمًا مغرور مخدوع بها، أو لأنها حقيرة متروكة فانية زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وفي الحديث: **(والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)**[1]»[2].

وتهوين شأن الدنيا على هذا النحو لمن آثرها على الآخرة، قال سعيد بن جبير: «إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ»[3].

فهل ينخدع العاقل بهذا المتاع ويضحي من أجله بنعيم خالد وسعادة سرمدية ؟، ألا إنها الحماقة التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى!

٢. لعب ولهو.

ورد اللعب واللهو صفة للدنيا في أربعة مواضع: الأنعام ٣٢، العنكبوت ٦٤، محمد ٣٦، الحديد ٢٠.

و«اللعب واللهو هما الاشتغال بما لايعني العاقل من لهو وطرب، سواء كان ذلك محرمًا أم غير محرم، بيان ذلك: أن هناك أمورًا ثبت تحريمها بالشرع، كالزنا واغتصاب الأموال، والاشتغال ببعض الآلات التي تشغل الإنسان عن القيام بواجبه، وهناك أمور أخرى لم يرد نص في تحريمها، وذلك كالألعاب التي ليس فيها نفع، كما هو شأن كثير من الألعاب المنتشرة في عصرنا، فهذا كله يصدق عليه أنه لهو ولعب، لأنه لا نفع فيه، أما إذا كانت هذه الألعاب تحقق غرضًا ومصلحة كأعمال الفروسية والرماية، فإن هذا مما أباحه الشرع ولا حرج فيه»[4].

فاللهو واللعب بينهما عموم وخصوص؛ وذكر العسكري بينهما فرقًا، فقال: «لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو ؛ لأن اللعب يكون للتأديب وغيره، ولا يقال لذلك: لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب... نفعًا، وسمي لهوًا؛ لأنه يشغل عما يعني، من قولهم: ألهاني الشيء، أي: شغلني، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر:١]»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم ٢٨٥٨.
(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٧٠.
(٤) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل عباس ص٩٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٤.

ومن أمثلة اللهو ما يفعله الذين ينفقون أعمارهم وطاقاتهم في العبث بلعبة النرد، أو بألعاب الورق ذات الأرقام والصور، ونحو ذلك من وسائل لهو وعبث.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

فما أشد بؤس المرء الذي تخلو حياته من الجد والعمل، وتقتصر على اللهو واللعب، فلا غرس عملًا صالحًا ولا حصّل خلقًا فاضلًا، والاستغراق في ممارسة اللهو واللعب يؤدي إلى الإنزلاق في مستنقع الغفلة، فينطلق المرء نحو زينة الحياة الدنيا في سعار محموم لا يتوقف ولا ينتهي، فينسى الآخرة، ويتشاغل عنها حتى إذا جاء وقت الحصاد في الآخرة لم يحصد إلا الخيبة والندم، ولم يجن سوى الهوان والخسران، فالجزاء من جنس العمل!

٣. زينة.

وصفت الحياة الدنيا بالزينة في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

وووردت مضافة للحياة الدنيا مرتين في سورة الكهف ٢٨-٤٦، وثلاث مرات مضافة للضمير العائد على الحياة الدنيا في سور: هود ١٥، والقصص ٦٠، والأحزاب ٢٨.

«الزينة هي في الأصل اسم جامع لكل ما يتزين به، والتزيين هو تحسين المظهر وتجميله حتى تميل إليه الحواس، وترتاح إليه النفوس، ولا يشترط فيما هو حسن المظهر أن يكون في حقيقته جوهرًا نافعًا، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربما يكون ضارًّا وجالبًا لشر وعذاب.

وقد أبان الله عز وجل أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلوا الناس أيهم أحسن عملًا، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]»[1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن

«فكلّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثروات، وضيعاتٍ وروضات، ومراكب فارهة، وأسواقٍ عامرة، ومراتب عالية، كلّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعيٍ، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتتن بسرابها، وركن إلى متاعها بأن عمرها قصير وإلى الفناء تصير»[1].

وقد سمى الله تعالى المال والبنين زينة من زينة الحياة الدنيا، قال الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

«وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسا قيمة، فلا يجوز وزن الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكًا وعملًا في منزلهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله.

حبنكة ٢ / ٥٤٢.

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم ٤ / ٢٩٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣٢]»[2].

٤. تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد.

وصفت الحياة الدنيا ب(التفاخر والتكاثر) في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

قال ابن فارس: «الفاء والخاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلّ على عظمٍ وقدمٍ. من ذلك الفخر»[3].

«قرأ الجمهور بتنوين «تفاخر» والظرف صفة له، وقرأ السّلميّ بالإضافة، أي: يفتخر به بعضكم على بعضٍ، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوّة، وقيل: بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب»[4].

التكاثر:

(٢) العواصم من الفتن في سورة الكهف، الشيخ عبد الحميد طهماز ص ٧٨.

(٣) مقاييس اللغة ابن فارس، ٤/ ٤٨٠.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ص ١٤٦٠.

قال ابن فارس: «الكاف والثاء والراء أصلٌ صحيح، يدل خلاف القلّة، من ذلك الشّيء الكثير، وقد كثر»[1]. «والمكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعز، ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر، فصارت تستعمل في الحرص على تحميل الكثير، من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ «إشارة إلى ما يجرى بين الناس من تنافس في الاستكثار من متاع الحياة الدنيا، وزينتها من أموال وأولاد، لا لسدّ الحاجة، وإنما لإشباع رغبة التعالي والتفاخر، تلك الرغبة التي كلما ألقى إليها ما تشتهيه، اشتد جوعها، وازداد نهمها، فلا تشبع أبدًا، إن من شأن التعالى والتفاخر أن يجور على حياة الإنسان نفسه، كما أن من شأن هذا أن يحمله على الجور على حقوق الناس، ابتغاء الوصول إلى الغاية التي يبلغ فيها حدّ التعالى الذي يملؤه فخرًا وتيهًا»[3].

٥. عرض.

ورد لفظ (عرض) مضافة إلى (الحياة الدنيا) في سورتي النساء ٩٤، والنور ٣٣، كما ورت مضافة إلى (الدنيا) في سورة الأنفال ٦٧، ووردت دون إضافة في الأعراف ١٦٩.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

«العرض: ما لا يكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلّمون العرض لما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عرضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثبات لها»[4].

وفي تسمية متاع الدنيا عرضًا ما يدل على كونه سريع الفناء، قريب الانقضاء، فهو عارض زائل غير باق.

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ليس الغنى عن كثرة

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٧٧٥- ٧٧٦.
(٤) المفرادات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣١.

العرض، ولكنّ الغنى غنى النّفس)[1].

«قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي، وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني. وقال القرطبي: معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل»[2].

٦. زهرة.

وردت بصيغة (زهرة الحياة الدنيا) مرة واحدة في سورة طه، قال الله عز وجل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وزهرة الحياة الدنيا أي:حسنها ونضارتها، وفي ذلك إشارة إلى أن الحياة الدنيا قصيرة وسريعة الزوال، كالزهرة تذبل بمرور الوقت.

ثانيًا: ضرب الأمثال للحياة الدنيا:

مثلت الحياة الدنيا في القرآن الكريم بثلاثة أمثال في سور يونس، الكهف، الحديد. وقد ذهب أكثر المتحدثين عن هذه الأمثال -من مفسرين وغيرهم- إلى أن الحياة، أو متعها كانت قد شبهت - لسرعة زوالها، وفنائها -بماءٍ أنبت نباتًا، أو بنباتٍ كسا الأرض بهجة ونضارة، ثم ما لبث أن ذبل وجف وتهشم، وتبدد هباءً منثورًا، فعادت الأرض وكأنها لم تكن قد اكتست به في يوم من الأيام.

وسنقف بإيجاز مع كل مثل من هذه الأمثال:

المثل الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم ١٠٥١.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٢٨-٣٢٩.

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [يونس:٢٤].

يقول الإمام الطبري في شرح المثل الأول في سورة يونس: «إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكّل بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمثل ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ببعض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها»(١).

وللإمام ابن القيم كلام لطيف في شرح هذا المثل فيقول: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة (إما بالموت وهذا ظاهر، وإما بمرض ينزل بالمرء فلا يستفيد بها أو بآفة تجتاحها وتزيلها أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء»(٢).

والمتأمل في المثل السابق يجد أنه يمثل طرقات قوية تهز القلب البشري الغافل الذي تخدعه زينة الحياة ونضارتها، فيتوهم فيها الخلود الخادع، ويغره الأمل الكاذب حتى ينسى في غمرة انشغاله بشهواتها الحياة الحقيقية التي وعد الله عز وجل بها عباده الصالحين ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

«فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها، حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام»(٣).

المثل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

يقول الشيخ المراغي رحمه الله:

(١) جامع البيان، الطبري ١١ / ٧١-٧٢.

(٢) إعلام الموقعين ٢ / ٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٧٥.

«شبّهت الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر، ثم صار هشيمًا متفتّتًا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ومن ثم لا يغترّنّ أهلها بها، ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله، ولا يستكبرنّ بها على غيره، فإنما هي ظل زائل، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: وكان الله ذو الكمال والجلال قادرًا على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة، فهو يوجد الأشياء ثم ينمّيها ثم يفنيها، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهي تظهر أولًا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعّر خده استكبارًا»[1].

فما أضل الإنسان الذي تخدعه مظاهر الحركة والنمو والبهجة والنضارة والزهو والشباب.. وتثير في نفسه مشاعر الفرح والغرور والخيلاء، فينشغل بالزينة عن القيمة، وينخدع بظواهر الأمور، فيركن إليها، ويقصر اهتمامه عليها، ولا يستثمر من زينتها شيئًا لمستقبله الآخروي.

المثل الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]

يقول ابن كثير رحمه الله: «ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، وقوله: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعد ما كان خضرًا نضرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولًا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفد (يفقد) بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]»[2].

(١) تفسير المراغي، ٥/ ٤٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤.

وهكذا فالمتدبر في هذه الأمثال الثلاثة يجد أن القرآن الكريم لم ينتقص من الحياة ذاتها، وإنما انتقص من انشغال الإنسان فيها بما لا يعود عليه بآجل الثواب، واغفاله مالا ينبغي أن يغفل عنه، فهذه الأمثال تدفع المرء للنظر إلى الحياة الدنيا من موقع الفكر والتأمل لا من موقع الانبهار والالتذاذ.

«إن الآيات ليست في صدد التزهيد في الدنيا وطيباتها والكسب والمال والولد. وكل ما في الأمر أن فيها تنبيهًا على عدم ميل المرء إلى الدنيا وجعل أعراضها أكبر همّه وقصارى آماله. وعلى عدم الاستغراق فيها استغراقًا ينسيه واجباته نحو الله ونحو الناس. ويجعله يغفل عن الآخرة وحسابها وهي دار الخلود في حين أن أمد الحياة الدنيا قصير جدًّا بالنسبة لكل إنسان يعيش فيها. والأسلوب بهذا البيان علاج روحاني شاف يفيد الإنسان في جميع ظروفه وبخاصة حينما تطغى المادة على الروح وتغطي أغراض الدنيا الغرارة مثل الإنسانية العليا وتقسي القلوب وتنزع منها خشية الله تعالى»[1].

«فالناس -كل الناس- ليسوا في حاجة أبدا إلى من يدعوهم إلى الإقبال على الدنيا، وإلى أخذ حظوظهم منها، إذ هم مقبلون بطبعهم عليها، مدعوون بحكم غريزتهم إلى الاندفاع في هذا الإقبال إلى مالا نهاية له.

وإنما الناس -كل الناس- محتاجون إلى من يمسك زمامهم ويروّض غرائزهم، في تعاملهم مع الدنيا، وفي تنافسهم المهلك على ما فيها من مال ومتاع، فكل معرض يعرض فيه القرآن الكريم، الحياة الدنيا، مستخفًّا بها، مهونًا من شأنها، إنما هو دواء ملطف لهذا السّعار الذي يدفع الناس دفعًا في غير وعي، إلى أن يلقوا بأنفسهم إلى مواطن التهلكة، دون أن يأخذوا حذرهم مما يلقاهم على هذا الطريق المحفوف بالمخاطر»[2].

(١) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ٩/ ٣٢٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٧.

الحياة البرزخية

قال الله عز وجل: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني: إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة، والبرزخ والحاجز والمهلة متقاربات في المعنى»(١).

وقال الراغب: «البرزخ: الحاجز والحدّ بين الشيئين، والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة في قوله عزّ وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد:١١].

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وتلك العقبة موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون. وقيل: البرزخ ما بين الموت إلى القيامة»(٢).

«إن مقتضى العدل، وانطلاقًا من الشرع الحنيف، لا بد أن يكون هناك موقف يقفه الإنسان، ليحاسب على عمله، ويجازى على فعله، بعد انتهاء حياته الدنيا، وانتقاله إلى حياة أخرى التي هي بداية الحياة الأبدية، ألا إنها حياة البرزخ، لينعم أو ليعذب، حتى تتحقق العدالة الإلهية، ويوّفى الجميع وتطمئن قلوبهم، أن لهذا الكون إلهًا عادلًا، لا يظلم مثقال ذرة، والعقول السليمة، والفطرة المستقيمة ترى أن حياة الإنسان بعد موته لحسابه ومجازاته، ومنها حياة البرزخ، من أهم ضرورات الحياة الطبيعية، الحياة المستقرة الآمنة، التي تتمتع بالأمن والأمان، إذ لابد أن يكون هناك وقفة مع هذا الإنسان بعد الحياة الدنيا، لكي يجازى كل إنسان على عمله وفعله، وما كسبت يداه، وينعم المحسن، ويعذب المذنب»(٣).

أولًا: نعيم البرزخ:

ورد في القرآن الكريم آيات دالة على نعيم البرزخ، وكذلك تظاهرت الأحاديث النبوية على إثبات ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

روى الإمام البخاري بسنده، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٤٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٣.
(٣) حياة البرزخ في ضوء الكتاب والسنة، شادي فوزي محمد بشكار ص٩٧-٩٨.

﴿ٱلْآخِرَةِ﴾[1].

وفي الحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يؤكد نعيم البرزخ، حيث ذكر فيه قبض نفس المؤمن بسهولة ويسر، ثم توضع روحه في كفن من أكفان الجنة ويصعد بها إلى السماء حتي يصل إلى السماء الدنيا، فيشيعة الملائكة المقربون، ثم تعاد روحه مرة أخرى إلى جسده ويبدأ الحساب والسؤال في القبر، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: **(فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي)**[2].

ومن النعيم الذي حدث عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، ما يصيب الشهداء في حياة البرزخ، فقد صح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: **(لمّا أصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل اللّه أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلّقةٍ في ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا في الجنّة نرزق، لئلّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب، فقال اللّه عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾** [آل عمران:١٦٩])[3].

ومن صور النعيم في البرزخ أن أرواح المؤمنين تتلاقى وتتذاكر في البرزخ.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، رقم ٤٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم ١٨٨٧.

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

«وفي هذه الآية دلالة على تلاقي أرواح الشهداء من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم عند ربهم يرزقون، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم ولقائهم لهم.

الثالث: أن لفظ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضًا مثل (يتباشرون)»[1].

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

يقول الإمام ابن القيم في التعقيب على هذه الآية: «وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي الدار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث»[2].

ثانيًا: عذاب البرزخ:

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب البرزخ حق، وأن الكافرين في الحياة البرزخية يعذبون حتى يبعثهم الله إليه يوم القيامة، ومن تلك النصوص:

(١) الروح، ابن القيم ص ٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]

قال الطبري بعد ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وذكر حديث بسنده، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أتدرون ما المعيشة الضّنك؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (عذاب الكافر في قبره، والّذي نفسي بيده أنّه ليسلّط عليه تسعةٌ وتسعون تنّينًا، أتدرون ما التّنين؟ تسعةٌ وتسعون حيّة، لكلّ حيّة سبعة رءوسٍ، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة)**»[4].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٦.
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٦٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ٣١٢٢.

وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧] فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرًا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور:٤٧].

قال قتادة: «كان ابن عباس يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١].

قال قتادة: «قال الله تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: عذابًا في الدنيا وعذابًا في القبر»[3].

وفي السنة النبوية نصوص كثيرة تثبت عذاب البرزخ، نأخذ منها هذين الحديثين:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: **(إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار)**[4].

وروى البخاري ومسلم أيضًا عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: **(إنّ العبد إذا وضع في قبره، وتولّى عنه أصحابه، إنّه ليسمع قرع نعالهم،**

وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٥٢.

(١) جامع البيان، الطبري ١٦ / ١٩٨-٢٠٠.

(٢) المصدر السابق ٢١ / ٦٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١ / ٦٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم ١٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٦٦.

أتاه الملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرّجل، محمد؟ فأمّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد اللّه ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النّار، قد أبدلك اللّه به مقعدًا من الجنّة. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (فيراهما جميعًا). قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ثم رجع إلى حديث أنس: وأمّا الكافر أو المنافق، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول النّاس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثمّ يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلّا الثّقلين)[1].

إن إيمان المسلم بحياة البرزخ يدفعه إلى تزكية نفسه وتهذيبها، وتقويم المعوج من سلوكه، كما يحجزه عن الوقوع فيما حرمه الله بما يغرسه في قلبه من الخوف والخشية، فيحرص على ضبط أقواله وأفعاله، وعلاقاته ومعاملاته بما يتوافق مع الشرع الحنيف، لأنه يعلم أن الحياة البرزخية صورة مصغرة لما سيكون عليه الجزاء في الحياة الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، كما أن المسلم يوقن أن حياة البرزخ هي من النتائج الأولى للامتحان والاختبار في الحياة الدنيا، وليس هناك فرصة للعودة مرة أخرى لتصحيح الأخطاء أو تعديل المسار، وهذا ما يجعله في يقظة وحذر دائمين، يحاسب نفسه كلما شردت عن الصراط المستقيم أو جرفتها الشهوات إلى لجج الغفلة.

وهذا الإيمان بالحياة البرزخية هو السبب الرئيس في نشر الخير وتفشي العدل وسيادة الأمن والأمان على مستوى الأفراد والجماعات والأمم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٧٠.

الحياة الآخرة في القرآن

جاء وصف القرآن الكريم للحياة الآخرة ليبين للناس حقيقتها، فلا تغيب عن أذهانهم صورتها وهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا، ينشغلون بمعاشها وزخارفها، فتكون حافزًا لهم على النهوض للطاعات والعبادات، ومجاهدة النفس على إقامة الأوامر واجتناب المحظورات من أجل الفوز والنجاة في الآخرة.

أولًا: وصف الحياة الآخرة:

وصفت الحياة الآخرة بعدة أوصاف منها:

١ ـ الحيوان.

الحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوًا، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمي ما فيه حياة: حيوانًا. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة[١].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها»[٢].

وأشار الإمام بن القيم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يحتمل معنيين:

«أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرا على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ بدلًا من «لهي الحياة»، إشارة إلى أن الحياة الآخرة هي الحياة، بل هي أصل الحياة، وما سواها من حيوات، ظل لها، أو فرع منها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن الغفلة المطبقة على العقول تمنعها من إيثار الباقي على الفاني، وتدفعها لاختيار الضلالة على الهدى، فما أضل الإنسان حين يترك عقله إلى جهله، وبصيرته

(١) انظر: الكشاف ٤ / ٥٦٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٤٠.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١/ ٢٠٠-٢٠١.

إلى عماه، وفطرته النقية إلى شهواته الشائبة، فيضحي بالحياة الحقيقية من أجل سراب خادع!

مما سبق يتضح أن الدار الآخرة هي الحياة الدائمة التي لا موت فيها.. «الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

فأين هذه الحياة الآخروية من حياتنا الدنيا المملؤة بالمنغّصات والمكدرات، لذاتها ممزوجة بالمتاعب والآلام، يعيش المرء في خوف وهمّ من فقدان متاعها في أي لحظة، فيا قرة أعين المؤمنين بالحياة الحقيقية في الآخرة التي تعوضهم عن كل نصب وشقاء أصابهم في الحياة الدنيا.

٢. دار القرار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر:٣٩].

قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾: «الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم»[2].

«وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ استقرّت الجنّة بأهلها واستقرت النّار بأهلها»[3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن الجنة والنار مستقرتان، فقال في وصف الجنة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

كما قال عز وجل في وصف النار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

«وأي قرار هذا الذي يقر أو يستقر أو يستمر في جهنم، لو كان يدخل فيها يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، أو سنة أو سنتين، أو مائة سنة أو مائتين، أو ألفًا أو ألفين، لا.. خالدين فيها أبدًا والعياذ بالله. الإنسان يعيش في الدنيا مستمتعًا باللذائذ والشهوات، ومن كل ما لذ وطاب من الحلال والحرام، فإذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ١٤٥.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٥ / ٦٥٨.

جيء به يوم القيامة، وغمس في جهنم غمسة واحدة، ثم يسأل: «هل أصابك نعيم قط؟» هل مر بك نعيم قط؟ فيقول:لا، ما أصابني نعيم قط[1]. وغمسة واحدة تنسيه كل نعيم الدنيا، فما بالكم بمن يقر في جهنم ويقاسي حر نارها، وقبحت المستقر»[2].

٣. دار الخلد.

قال الراغب: «الخلود: هو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها»[3].

وقال صاحب لسان العرب: «الخلد: دوام البقاء في دارٍ لا يخرج منها، خلد يخلد خلدًا وخلودًا: بقي وأقام. ودار الخلد: الآخرة لبقاء أهلها فيها»[4].

ولقد وصف الله عز وجل الحياة الآخرة بالخلود، فقال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان:١٥].

وقال تعالى في حق أهل النار: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس:٥٢].

أي: لهم الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، فشدة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات.

روى الشيخان عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: **(يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح[5]، فينادي منادٍ يا أهل الجنّة فيشرئبّون[6] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. ثمّ ينادي: يا أهل النّار، فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. فيذبح. ثمّ يقول: يا أهل الجنّة، خلودٌ فلا موت، يا أهل النّار، خلودٌ فلا موت، ثمّ قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾** [مريم:٣٩][7].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٢٨٠٧، عن أنس بن مالك.

(٢) تفسير سورة إبراهيم، يوسف القرضاوي ص ١٨٣.

(٣) المفردات، الراغب الإصفهاني ص ١٥٤.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢ / ١٢٢٥.

(٥) الكبش الأملح: هو الذي فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧ / ١٨٥.

(٦) فيشرئبون: بالهمز، أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.
انظر: المصدر السابق.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم ٤٧٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة،

٤. دار الجزاء.

من صفات الحياة الآخرة التي لابد أن نؤمن بها أنها دار الجزاء، وهذا الجزاء هو الجزاء الحقيقي، لأنه جاء من الملك الحق الذي لا يملك أحد معه في الحياة الآخرة حكمًا كملكهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤].

والدين الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

وقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣]، أي: مجزيون محاسبون[١].

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر:١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية:٢٢].

٥. دار الحق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾ [النبأ:٣٩].

«إنه اليوم الحق الذي يتقرر فيه الحق من حساب وجزاء وجنة ونار، يتقرر فيه ما وعد الله به وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، إنه اليوم الحق الذي يتلاشى مع وقوعه كل تعلق بباطل، ولايقول الناس جميعًا إلا الحق ولا يرون إلا الحق، إنه الحق الذي لا لبس فيه ولا شك»[٢].

فيا له من يوم عظيم لا موضع فيه لباطل ولا ادعاء، تبلى فيه السرائر وتنكشف الضمائر.

ثانيًا: وصف نعيم الآخرة:

وصف القرآن الكريم نعيم الآخرة بعدة صفات، منها:

١. دائم.

وصفت الآيات القرآنية نعيم الآخرة بأنه نعيم باق دائم على عكس نعيم الدنيا الزائل الفان.

قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

«أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدّر متناه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول»[٣].

وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٤٩.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٥.

(٢) كلمة الحق في القرآن الكريم موردها ودلالتها، محمد الراوي ١/ ٣٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦٠٠.

يقول الإمام الرازي في شرح هذه الآية: «الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية، والباقي خير من المنقطع، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا أو كان خيرًا دنيًّا خسيسًا، فإن قلنا: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصًّا حال حصوله، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها، وأما إن قلنا: إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع، فثبت بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص:٥٤].

أي: أنّ النعم في الآخرة خالدة ولا تنفد ولا تزول كما في الحياة الدنيا، وأنّها تزداد دائمًا من خزائن الله المملوءة وغير المحدودة، ولا يظهر عليها أي نقص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق:٢٥][2].

كما وصف الله عز وجل أشجار الجنة بأنها دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال.

قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد:٣٥].

فيا له من فضل عظيم من الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني على عباده المؤمنين أن جعل لهم هذا النعيم الدائم المستقر في جميع الأوقات، متزايدًا في جميع الآنات.

٢. خير.

وصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها خير للمتقين في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠ / ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٢٢٨.

تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩].

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون، مطمئنين واثقين، ملأ قلوبهم اليقين»[1].

وقد وصف الفخر الرازي وجوهًا عدة لوصف نعيم الآخرة بكونه خيرًا، فقال: «الأول: أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٨٧.

الثاني: أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعًا، وأما الوصول إلى الخبرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرًا حقيرًا، وهذا التفاوت أيضا يوجب المباينة بين النوعين.

الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يومًا آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعًا أنه ينتفع به في الدار الآخرة.

الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليًا عن شوائب المكروهات، ومما زجة المحرمات المخوفات.

الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل.

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا

www. modoee.com

وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى»[1].

٣. أكبر.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل:٤١].

وقال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

«والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

أو أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]»[2].

«وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة؛ فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضًا في شيء منها، وهي الدار الفانية. فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية؟! مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة -وما عملها إلاّ الخير والمعروف- حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه، وأكمل حال، فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[3].

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

وتأمل في قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ثم اسأل نفسك: أي نعيم يفوق هذا النعيم؟! إن كل نعيم الآخرة ليتضاءل أمام رضوان الله عز وجل، وماذا يحتاج المؤمن بعد أن تغمره نسمات الرضا الإلهي.. فيا فوز المؤمنين بهذا المقام الكريم، ويا سعادتهم برضوان من الله يغمر أرواحهم، وتستشعره نفوسهم بلا انقطاع،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢ / ٢١١-٢١٢، باختصار.

(٢) المصدر السابق ٢٠ / ١٨٣.

(٣) تفسير ابن باديس ص ٦٠.

ويا حسرة غير المؤمنين وهم يتجرعون مرارة سخط ربهم عليهم ويقاسون أشد أنواع الحرمان والخسران.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)**[1].

٤. مقام أمين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٥١].

«أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب»[2].

«والمقام: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا»[3].

«والأمن أكبر شروط حسن المكان؛ لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنًا في منزله كان مطمئن البال شاعرًا بالنعيم الذي يناله»[4].

فيا لقرة أعين المؤمنين بهذا المقام الأمين، ويا لسعادتهم وهم يغادرون جميع المخاوف والمكاره إلى غير رجعة.

ثالثًا: وصف عذاب الآخرة:

إن المتدبر للقرآن الكريم يجد في آيات كثيرة وصف الله عز وجل لعذاب الحياة الآخرة بأوصاف كثيرة متنوعة، وذلك كعادة المنهج القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب، فهذا «المنهج يتعامل مع الناس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم ٢٨٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٢٦١.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١ / ٢٠٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٣١٧.

جميعًا، مع الطبيعة البشرية. والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم، وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة، يطمئنها على مصيرها وجزائها، ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين!»[1].

ومن هذه الأوصاف مايأتي:

١. أشق وأشد.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد:٣٤].

قال ابن كثير: «﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدّخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين: (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[2]، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]»[3].

وقد بين الرازي في تفسيره وجه زيادة عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فقال: «﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع»[4].

ومن هذه الآيات التي وصفت عذاب الآخرة بأنه أشق وأشد قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

٢. غرام.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٥٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللعان، رقم ١٤٩٣، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٤٦٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩ / ٥٩.

﴿غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان:٦٥].

«أي: لازمًا دائمًا غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا، أي: لازم له مولع به، وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد.

وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار»[1].

«والعذاب الغرام: هو العذاب المؤبّد أبدًا! لا ينقطع ولا يزول ما دامت السماوات والأرض! فكيف إذا كان ذلك التأبيد الرهيب في قعر جهنم وجوف جحيمها؟ عذاب ولا كأي عذاب والعياذ بالله! أوليس هذا مما لا يطيق الخيال تصوره؟

ولا يستطيع القلب تحسسه لما يحمله من هول عظيم؟ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان:٦٦].

أي: بئس المنزل هي! وبئس القرار! وبئس المصير! فبأي عين يستحلي النوم والسبات أصحاب مثل هذه المشاهدات؟!»[2].

فما أقسى ذلك العذاب الذي يلازم صاحبه، فلا يفارقه ولا يتحول عنه، يفقد معه أي أمل في النجاة أو الخلاص ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة:٣٧].

٣. العذاب المهين.

قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة:٩٠].

«لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠].

أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بولس، فيعلوهم نار الأنيار، يسقون من**

(١) المصدر السابق ١٥ / ٤٧٣.
(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ١ / ٢٤٤.

طينة الخبال: عصارة أهل النار)[1]»[2].

والآيات التي وصفت العذاب بأنه مهين كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان:٦].

«مهين: أي مذل مخز. وهذا الإذلال والاحتقار له يكون في مقابل استهزائه بعناصر سبيل الله، واحتقاره لها في الحياة الدنيا، إذ كانت تشغله عنها الملهيات التي كان يجد فيها متعات تعلقت نفسه بها، فصار يحتقر من أجلها عناصر سبيل الله الموصل إلى السعادة الأبدية في جنات التعيم، إذ هو غير مؤمن بالآخرة»[3].

٤. العذاب الأخزى.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

«الخزي: الانكسار من الوقوع فى بليّةٍ وشهرة. وقد خزى كرضى خزيًا -بالكسر- وخزىً، واخزوى: بمعناه. وأخزاه الله: فضحه. والخزية والخزية بالفتح والكسر: البلية. وقيل الخزي: انكسار يلحق الإنسان إمّا من نفسه وإمّا من غيره. فالّذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ومصدره الخزاية، ورجل خزيان وامرأة خزيا. والّذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى ورجل خز. وأخزى من الخزاية والخزى جميعًا»[4].

«ونلاحظ عناية الآية بلفظ (الخزي)

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٦٠، رقم ٦٦٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٥، رقم ٢٤٩٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الرقائق، ١٠/ ٣٩٨، رقم ١١٨٢٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٥، رقم ٨٠٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢٨.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن حبنكة ١١/ ٦٩٣.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

و(الأخزى)؛ لأن هذا هو المراد إبرازه لقدع تلك الأنوف المستكبرة والمتغطرسة، وكان يمكن أن تقول الآية: ولعذاب الآخرة أشد، وقد جاء ذلك كثيرًا فى الكتاب ولكل كلمة مقام»[1].

ولما علم أولو الألباب أن عذاب النار هو الخزي الأكبر والهوان الأعظم توجهوا إلى ربهم في ضراعة وخشوع داعين إياه سبحانه أن ينجيهم من هذا الموقف المخزي والمصير المظلم، لأن قلوبهم قد عمرتها الخشية والإجلال والتعظيم لله عز وجل عبر ممارسة التفكر في الأنفس والآفاق، فأصبحت النجاة من خزي النار هو القضية التي تشغل بالهم، والهم الذي يسيطر على تفكيرهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢].

٥. العذاب الأليم.

قال ابن فارس: «(ألم) الهمزة واللّام والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الوجع. قال الخليل: الألم: الوجع، يقال: وجعٌ أليمٌ، والفعل من الألم ألم، وهو ألمٌ، والمجاوز أليمٌ، فهو على هذا القياس فعيلٌ بمعنى مفعلٍ. وكذلك وجيعٌ بمعنى موجعٍ. قال ابن الأعرابيّ عذابٌ أليمٌ، أي: مؤلمٌ ورجلٌ أليمٌ ومؤلمٌ، أي: موجعٌ»[2].

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب الأليم، منها:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل:١٢-١٣].

٦. العذاب العظيم.

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب العظيم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ

(١) آل حميم، غافر وفصلت، دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى ص٣٧٢.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦-١٢٧.

فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ [آل عمران:١٧٦].

٧. سوء العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر:٤٧].

المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة

«متاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود ينال بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبين أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها»[1].

أولًا: المقابلة بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة:

تنوعت النصوص القرآنية التي تقارن بين متاع الدنيا الزائل وبين نعيم الآخرة الدائم، نقف مع بعضها بالشرح والتحليل:

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ

(١) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الجنة والنار، د. عمر الأشقر ص ٢١٥.

مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

هذه الآيات تتحدث عن أفضلية النعيم الأخروي على المتاع الدنيوي.

«وهذا المتاع الأخروي الذي تذكره الآية هنا، ويؤمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبشر به المتقين، هو نعيم حسي في عمومه، ولكن هنالك فارقًا أساسيًّا بينه وبين متاع الدنيا، إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا. الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم. وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا. شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمة. فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة! ويرتفعون بالتطلع إليه -وهم في هذه الأرض- قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله.

وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا، وفيه زيادة. فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثًا معطيًا مخصبًا، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار. وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات!

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة. وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة!

فأما الخيل المسومة والأنعام. وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع. فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع، هنالك ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما، ويرجح، رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان»[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٥].

«والسؤال هنا سؤال إغراء وتحريض على طلب الجواب ومعرفة حقيقة الخبر!

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ ألا ترغبون في معرفة ما هو أحسن مما أنتم فيه من متع وملذات؟ وما أنتم غارقون فيه من شهوات؟ ألا ترغبون في نعم لا تفنى أبدًا ولا تزول! إنها قطعًا خير مما أنتم فيه من الاستمتاع الفاني القريب! هذا الاستمتاع الشهواني الكاذب، الذي لا يتعدى أيام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٣٧٥.

العمر البشري القصير! لكنه خبر يهم فقط المؤمنين المتقين، الذين لم يغتروا بشهوات الحياة الدنيا، ولم يفتنوا بها، فإذا كان الله قد ابتلاهم بشيء منها فقد أدوا حق الله فيها، وأنفقوها في وجوهها المشروعة، فكانوا بها لربهم عابدين، حامدين شاكرين!»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وجملة معنى النص الكريم لا يصح أن يخدع أحد بما عليه أولئك الكفار من قوة وسطوة وتصريف في شئون البلاد، ورخاء ورفاهية وثراء فإن هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، فما قيمة هذا المتاع -مهما تقلبوا في هذه الحياة الدنيا بشتى صنوف المتع والشهوات- إذا كانت نهاية المطاف ودار القرار هي جهنم؟!

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

«الاستدراك هنا ب «لكن» للمقابلة بين المتقين الأبرار والمشركين الفجار بالنسبة للمآل، فالكفار مآلهم جهنم ومتاعهم دنيوي قليل، والمتقون لربهم المدركون لمعنى الربوبية الشاكرون لنعمته مآلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وليست مدتها قليلة، بل لهم فيها الخلود، فالنعيم كثير والزمن طويل، بينما الآخرون نعيمهم ضئيل قصير، وعذابهم دائمٌ كثير»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦٠-٦١].

«فهذه صفحة من وعده الله وعدًا حسنًا فوجده في الآخرة حقًّا وهو لا بد لاقيه. وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارًا للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!»[3].

فشتان شتان بين مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، وبين من يعيش في الحياة الدنيا يغترف من الشهوات والملذات فهو يأخذ

(١) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٣ / ٦٨٩.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٥٥٨-١٥٥٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧٠٥.

فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

وهكذا.. فالعاقل يوازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا فأنى له العقل والرأي؟

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

في هذه الآية مقابلة بين ما في الحياة الدنيا من متع وشهوات ورغبات لا ثبات لها ولا استقرار، وبين ما في الآخرة من العذاب الشديد، أو المغفرة والرضوان، فليختر العاقل لنفسه ما يشاء.

«وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، هو تعقيب على تلك الأوصاف التي وصفت بها الدنيا، من أنها لعب ولهو، وذلك بعرض ما يقابلها، وهو الآخرة، التي لا لعب فيها ولا لهو، بل كل أمرها جدّ في جدّ.. ففيها عذاب شديد، وفيها مغفرة من الله ورضوان، وقدّم العذاب على المغفرة، لأن الآية في مواجهة الذين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها، ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدئت به: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»[1].

«فكيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يضيع حياته فيما لا بقاء له ولا جدوى فيه، في الوقت الذي يدرك فيه أنه متوجه إلى حياة الجزاء، من ثواب وعقاب؟ ولهذا اختتم المثل بذكر الآخرة وما فيها، فقال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، إذا لولا كون الآخرة حياة جزاء، لما كانت الدنيا حياة استعداد لها، فالتذكير بحياة الجزاء يصرف المؤمنين عما لا يعقب خيرا، ويدفع بهم إلى طاعة الله المجازي المثيب، والتقرب إليه بما أراد أن يتقرب به إليه»[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

في هذه الآيات عاتب الله عز وجل الذين رضوا بلذات الدنيا الناقصة الزائلة بدلًا من

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٨.

(٢) الأمثال في القرآن، محمد جابر فياض ص٣٠٦.

نعيم الحياة الآخرة الكامل الباقي، «أفليست الدنيا -من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًّا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عدّ من أولي الألباب»[1].

والآيات التي تقارن بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

مما سبق يتضح أن كل ما يناله الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مال أو جاه أو سلطان هو متاع، أي زاد لا يلبث أن ينفد، أو ثوب لا بد أن يبلى، فكل ما في الحياة الدنيا إلى نفاد، وزوال، وإن كثر وعظم، وما عند الله من الثواب والنعيم خير من زهرة الدنيا، لأنه باق سرمديّ، وما فيها زائل فان.

ثانيًا: المقابلة في قصد العباد لكل منهما:

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

في هذه الآيات مقابلة بين من قصر نظره على الدنيا، وعمل لها، وجعلها غايته، ومرمى همته، ومطرح نظره، ولم يكن له همٌّ سواها، ولم يلتفت إلى الآخرة، وبين من أراد الآخرة فاختار طريق الإيمان والعمل الصالح، والاستقامة على الصراط

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٣.

المستقيم.

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآيات: «إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم.

والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك إنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورًا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء. إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه»[1].

ونظير هذه الآيات من سورة الإسراء قول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠].

فيا لبعد الشقة بين من يريد الهدى والإيمان، ويعمل للآخرة، ويغرس فى مغارس الإحسان، فيزيد له اللّه سبحانه وتعالى فيما غرس، ويبارك عليه، ويضاعف له الجزاء أضعافًا مضاعفة، وبين من أعرض عن الآخرة، وعمل للدنيا، وغرس فى مغارسها، فأخذ ثمر ما غرس فى دنياه، واستوفى نصيبه منه، حتى إذا جاء إلى الآخرة، جاءها ولا نصيب له فى خيرها.

فما أشقى الذين يصرفون رغبتهم وسعيهم وعملهم في متع الحياة وشهواتها، غير ملتفتين إلى ما وراء هذه الدنيا، ولا منتظرين حسابًا ولا جزاء، فإذا كان يوم القيامة، وبعثوا من القبور، وسيقوا إلى الحساب والجزاء، فهنالك يرون سوء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨-٢٢١٩.

مصيرهم، وأنهم قد جاءوا إلى هذا اليوم مفلسين، لأنهم لم يعملوا له عملًا قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

موضوعات ذات صلة:

السعادة، اللعب، اللهو، الموت، اليوم الآخر